

بحثٌ عن ألحمة مهزومة خلف اللسان المصفى

نعيم علويّ

«أبو سفيان بن حرب: أَغْلِرْ هُبْلَ .
رسول الله (ص): أَلله أعلى وأجل»

ياقوت

بحث في متاهات اللغة عن شوارد الوثن والصنم واللات .

1 - الوثن والوطن

يبدو لي أن مجتمع الوطن في عصرنا هو الشكل المتطور لمجتمع الوثن قبل الإسلام . لذلك ألاحق بعض أشكال العلاقة العميقة من خلال شقائق مشتركة .

اللفظان /وثن/ و/وطن/ من وزن فَعَلَ . ويتركان في الفاء واللام ويختلفان في العين :

فَعَلَ

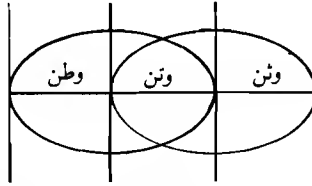
وَعَثَنَ

وَعِطَنَ

الاختلاف محصور في الثاء من /وثن/ وفي الطاء من /وطن/ .

وهذان الحرفان قريبان من بعضهما . الثاء لثوية ذلقية (من طرف اللسان) ومن بين الأسنان ، والطاء لثوية ذلقية فقط . وكلاهما حرف مهموس لا رنين فيهما لأوتار الحنجرة . إلا أن الطاء مطبقة فخمة المصوت أو مستعلية ، في حين أن الثاء لينّة معتدلة يميل مصوتها نحو الانخفاض وهي رخوة يسيل الزفير من مُتَعَدِّ خارجها . والخصائص المشتركة تدفع بالواحدة الى التطور نحو الأخرى ، ولكن لا بد لذلك من واسطة . فالثاء لا تتحول طاءً ، إلا بمرورها في مرحلة الثاء : ث ← ت ← ط ، والعكس صحيح . لكن التحول المباشر من الواحدة الى الأخرى مشروط بأن الثاء في جوار صامت مستعلٍ كقولنا /طار/ من /ثار/ .

والنون ليس من الحروف المتشعبة؛ لذلك على /وثن/، كي تتحول إلى /وطن/، أن تتحول أولاً إلى /وثن/. فهذا التحول يشكل المرحلة الوسطى. ولذا نعتبر /وثن/ حلقة مشتركة بين /وثن/ و/وطن/:



الوصف الذي قدمناه لكل من الثاء والطاء عضوي وله طابع نفسي حين يتعلق بكيفية سمعنا للحروف. ولكنه ليس فيزيائياً ولا رياضياً إلا بقدر ما هو السمعي والعضوي من الفيزياء والرياضيات. لكن الصورة أعلاه هي شكل رياضي منطقي. فهل يصدق التجريد الرياضي في المضمار المعجمي بحيث ينشأ من تقاطع حقل مع حقلين مختلفين حقل مدلولي رابع تجتمع فيه الحقول الثلاثة الأولى؟

في المعجمات عندنا مادة /وثن/ ومادة /وثن/ ومادة /وطن/. وفي الحياة والمأثورات نجد الناس يحولون الثاء تاء: ثوم ← توم، ويحولون الثاء طاءً، ويعكسون في كلا الحالتين. وما يقع تحت وعي الناس من هذا التحول يظل محصوراً في مجال النطق والسمع ولا يتعداه إلى مجال الفيزياء والرياضيات ومجالات أخرى نجهلها كالكيمياء اللغوية مثلاً. ونحاول الحصول على جواب من خلال ما جاء في معجم «لسان العرب»، وفيه كل مادة مستقلة عن أختها وليس عنده هذا النظر. إلا أن المعجميين الأوائل قد نظروا إلى المادة مع اعتبار قلب الحروف، كما تطارحوا مسألة التحولات الصوتية وحصرها جهودهم في اللفظ والأربعة الألفاظ. لكن معجم الأسر الكبيرة لم يرق بعد. فمما جاء في مادة /وثن/: يقول الليث: «الوائن والوائن لغتان وهما الشيء المقيم الراكد في مكانه. وقد وَثَنَ وَوْثَنَ بمعنى واحد. ومعناها الدَّوم على العهد». وفي المُحْكَم: «العَهْدُ أول المطر الرسمي». وأنشد أبو زيد:

فَهُنَّ مُنَاخَاتٌ يُجَلِّلْنَ زِينَةً كَمَا اقْتَنَانِ بِالنُّبْتِ الْعِهَادُ الْمُخَوَّفُ،

معنى العهد المُخَوَّفُ: مواقع الوسمي نبتت حافاتها واستدار بها النبات.

ومادة /وطن/ جاء فيها: «وَطَنَ بالمكان وأوطن: أقام، وأوطنه أتخذة وطناً». و«الوَطَنُ: المنزل تقيم به، وهو موطن الإنسان ومحله، والجمع أوطان». ولفظ /وطن/ يستعمل لغير الإنسان، فيقال: «أوطان الغنم والبقرة: مرايضها وأماكنها تأوي إليها». وجاء أيضاً: «مواطنٌ مكة: موافقها». ومن الضروري أن تشمل الأوطان الطبيعية على الماء. وتوطن المكان تمهيداً ليصلح منطلقاً «ترسل منه الخيل في السباق».

لا نلاحظ في /وطن/ ما يدل مباشرة على التكاثر والتوالد، ولا في /وثن/. بينما نجد في /وثن/: استوتوتن الإبل: نشأت أولادها معها. واستوتوتن النحل: صار فرقتين كباراً وصغاراً. واستوتوتن المال: كثر. وفي مقابل هذا نجد في /وطن/ لفظ «المِيطَان»، ويفسر الأصمعي: «هو المِيطَان والمِيطَان». فنحن نلمح في الوطن آثاراً من لوازم الخيل دون الماء والتكاثر. ونقدر أن مدلولاً لازماً متعلقاً بمدلول أساسي لا يغيب عن الدال الأساسي إلا إذا ناب عن الدال دال آخر من أسرته (في الأغلب). فإين الماء؟ نجد في الحديث نهياً عن «أن يوطن الرجل في المكان بالمسجد كما يوطن البعير». وشرح إيطان البعير بأنه «ياوي من عطن إلى مبرك دمث قد أوطنه واتخذة مناهجاً».

أطرَدت بنا مادة /وطن/ إلى مادة /عطن/. و«عَطَنَ الإبل عن الماء [...] رَوَيْتُ ثم بركت». وقد سُمِّي المَرَج، وهو مأواه عطناً. و«العَطَنُ للإبل كالوطن للناس، وقد غلب على مبركها حول الحوض، والمعطن كذلك، والجمع أعطان» كأوطان وأوشان. هذا الشح بالماء في /وطن/ قابله سخاء به في أكثر من أخت من أخوات /وطن/. ف«الطونة» في التهذيب عن ابن الأعرابي - هذا الرجل الجريء: «كثرة الماء». وفي /وثن/: «وُثِنَت الأرض: مُطِرَتْ؛ ووُثِنَتْ [...] بالماء أي مُطِرَتْ». لكن

الكرم بالماء تجلى في /وتن/: «الواتن: الماء المعين الدائم الذي لا يذهب». وفي الحديث: «أما تيماء فعينٌ جارية وأما خير فماء وإتنٌ أي دائم». وفي شرح الوتين قال ابن منظور: «عَرَقَ [. . .] يسقي العروق كلها الدَّمَّ ويسقي اللحم وهو نهر الجسد». خاضت /وتن/ بالماء، ولكنها أقامت صِلَةً حمراء مع /وتن/ حيث شدت انتباهنا بهذا النهر الدموي «نهر الجسد»، إلى نهر دموي آخر كان يجري حقيقةً على النَّصَب من أوثن وأصنام، لكننا أصل الوتين هو سبيل الدماء من العتائين والقرايين والأصاحي والذبايح: «وما هريق على الأنصاب من جسده». ومادة /جسد/ تفيد بعد التأمل: الدم الذي لم يَرَق، فإذا إريق اقتضى ذكر ذلك كما جاء في شعر النابغة أَعْلَاه. وهذا شديد الإغراء بتصور السجود قبل الإسلام عند المساجد التي ربما كانت مجاسد، أي أماكن إراقة الأجساد على الأنصاب، وذلك تسميةً لُطْفَ من تسمية «مذبح»، كـ«مذبح الحرية» وغيره.

لنَجْرِدَ الآن /وتن/ من الوالو لأنه في نظرنا الصوت الذي لجأوا إلى زيادته في الثنائي المضعف لاشتقاق لفظ جديد انسجماً مع وزن /فعل/ غير المضعف. ويكون الجذرُ الأصْلُ إذاً هو /تن/. وهذه كما نراها تكون اللفظ المتكوّن بمحاكاة صوت طبيعي إذا لم تكن تطورت عن ثنائيٍّ مضعفٍ شقيقٍ أو وحاديٍّ تَضَعَف. ونقدّر أن /تن/ وأمثالها هي أكثر الألفاظ التي يقع فيها القلب وذلك لأن الصوتين الطبيعيين اللذين ينقلهما الثنائي المضعف إنما يكونان ملتبسين بحيث تختلط صورتها على الحاكين. فمنهم من ينقل /تن/ ومنهم من ينقل /نث/، هذه قاعدة. يجب مراعاتها وقت النظر في أصول الاشتقاق. تنبصر الآن في /تن/. وارى أن أقرب أصوات الطبيعة إلى هذا المزيج من الجروس هو صوت ماءٍ قليل يخرج منضغطاً من شق في صخرة. وهو بخلاف الصوت المؤلف من الثاء والراء والنايع من جريان الماء هادئاً فوق الحصى أو من انصباب ماء قليل من علٍ في ماء آخر. ومعجم /تن/ ضعيف الدلالة على ما نبحت عنه وإن كان مفيداً. يقول ابن الأعرابي: «الثَّان: النبات الكثير الملتف». و«ثثن إذا رعى الثَّن» وهو الكلال الذي يعيد الدرّ إلى ضرع الحلوب بعد حَلْبها. و«ثث إذا عرق عَرَقاً كثيراً». و«الثَّنة من الانسان [. . .] ما دون السرة فوق العانة أسفل البطن». هذه كلها إشارات لا تخلو من معنى الماء من قريب.

وللثاء سبيل آخر، هو سبيلها إلى الشين: ث ← ش. وإذا كان هذا واقعاً يصبح من ضرورات البحث النظر في /شن/. فقد تكون متاهة معاني /تن/ هنا. ويدوان /شن/ لا تخيب الرجاء، ف«شن الماء على شرابه يشنه شناً: صَبَّ صَباً وفرقه» و«شنت العين دمعها كذلك». والشين: اللبن يُصَبُّ عليه الماء. وشن الغارة: «صبها وبشها وفرقها من كل وجه». و«الشَّانان عرقان ينحدران من أعلى الرأس إلى الحاجبين ثم إلى العينين» وقيل: الشَّانة «هي مدفع الوادي الصغير». و«الشَّوان من مسابيل الجبال: التي تُصَبُّ في الأودية من المكان الغليظ»، كأنها ما يسمونه هنا الشلالات. ولا تبقى هذه المادة محصورة في الدلالة على الماء ولوازمه بل تتعدى السائل الحيادي إلى الدم. ويظهر ذلك في شعر عبد مناف بن ربيع الهذلي:

«وإن، بقُودَةِ الأنصابِ منكم، غلاماً خرَّ في عَلَقِ شَيْنين»

وسواء أكان المعنى حقيقياً أو كنايةً فإنه يضع لفظ الدم الشينين في الموضع الملائم لنحر العتائين بين أيدي «الأنصاب». لكن ما هي النسخة الأصلية لد وتن؟ إن تعريفه بأنه الصنم ووصفه «كصورة الأدمي [. . .] تَعْمَلُ وتُصَبُّ قُتْعَبَد»، وتحديد مادته «من خشب أو حجارة أو ذهب أو فضة أو نحاس أو نحوها» كلامٌ مفيد. وفائدته أن /وتن/ اسم جنسٍ مثل /صنم/. ما هو الوثن الأم؟ الوثنُ العَلَمُ؟

إذا كان أملنا غير كبير في الحصول حالياً على جواب إلا أن استقصاء الأسرة اللغوية التي ينتمي إليها كل من الد/وتن/ والد/وطن/ يؤدي خدمةً الكشف عن فلكية تلك الأسرة وهيكلية المؤسسة الصنمية أو الوثنية. ولهذا الغرض ننظر في إمكانية تحول الثاء سيناً، مما ينتج عنه تحول /تن/ إلى /سن/. يقدم لنا قاموس /سن/ التالي: «سَنَتِ العين الدمع: صَبَّتْ»، و«سَنَ عليه الماء: صَبَّه» وقيل: أرسله إرسالاً لِيناً [. . .] من غير تفريق، فإذا فرقته بالصب قلت بالشين» أي شنت عليه الماء. ونخطو خطوة نحو التمثال الضائع الذي يحمل اسم /وتن/ أو /صنم/ حين نقرأ في مادة /سنن/: «وَسَنُ الطَّيْنِ: طِينٌ به فَخَّارٌ أو اتَّخَذَهُ منه». و«الْمَسْنُون: المَصُور». و«المسنون: المصبوب على صورة». /سنن/ قربت لنا المسنونات من المَصُورَات. ومن ذلك «سن الشرائع». فَسَنُ الشرائع هو نفسه تفريق الماء وتوزيعه حصصاً أو سقايات بين أعضاء المجتمع. والسَنن من ذلك.

والسنة ثلاثمائة وستون صنماً حول الكعبة. والسين الى النون مادة وسطى بين الوثن والصنم:

(سن + م) ← سنم ← صنم

سن ← وثن ← وثن

ويبدو أن اللسان العربي كان يتراوح بين هذين اللفظين - والإمكانات الصوتية متاحة لهذا التراوح - ولذلك حدث الالتباس في معجميها.

نتنقل من /وثن/ الى /أثن/. فالهمز في أول الثنائي المضعف يزداد كما تزداد الواو. والتعاقب بين /أ/ و/و/ مطرد: أثن → وثن. و/أثن/ تقدم لنا: «يقال للشيء الأصيل: أثين»، و«الأثنية: نبت الطلح، وقيل هي القطعة من الطلح والأثل». وتفخيم الهمزة من /الأثل/ يقفز - وليس بالضرورة - باللسان إلى /الأصل/. ويساورنا لأجل هذا ظن أن يكون الوثن أباً العشيرة. وهنا يجدر بنا أن نتفكر ملياً في اختلاف القراءة للآية «إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنْسَانًا» وإن يدعون من دونه إلا أنساً. ونقف كثيراً عند ضمير المخاطب والمخاطبة /أَنْتَ/ وضمير المخاطبين والمخاطبات: أَنْتُمْ، أَنْتِ. ن. وتذكر الإثنية: ethnie.

ويؤهنا تصورنا لعلاقة /انت/ بـ /أثن/ وأصلاً بـ /أثن/ و/وثن/ للنظر في /أثن/. نجد في قاموسها: «أَثْنٌ بِالْمَكَانِ يَأْتِي أَثْنًا وَأُتُونًا: ثَبَّتَ وَأَقَامَ بِهِ». و«الأثان: الصخرة تكون في الماء». و«أَثَانُ الضَّحْلِ: الصخرة العظيمة تكون في الماء [...] صخرة تكون على فم الرَكْبِي [البش] فيركبها السطحلب حتى تَمْلَأَ». و«الأثان: الحمارة والجمع أَثْنٌ وَأَثْنٌ وَأَثْنٌ. والأثان قاعدة الفُودَج [أي الهودج]. والأثان: المرأة الرعناء» وتلحق به /أثل/، و«الثَّيْلُ: نَبَاتٌ لَا يَكُونُ إِلَّا عَلَى الْمَاءِ وَيَسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى الْمَاءِ».

مما يقال في الوثن إنه بلا صورة. حتى يمكن القول إن الصخور المكعبة المقدسة كانت تسمى أوثناً. واعتقد أن قواعد التماثيل التي تقام فوقها الصور المنحوتة تشير إلى مرحلتين في الأوثان: المرحلة التي يكون فيها الصخر دون التشكيل والتشخيص والمرحلة الثانية تعلوها بالصورة المشخصة. وتفيدنا /أثان/ فوائد عدة: المادة صخرية؛ المكان الماء؛ /أَثْنٌ/ تفيد الاستيطان على الماء في استنتاجنا؛ وجمع الأثان كجمع أَثْنٍ أي أَثْنٌ وَأَثْنٌ وَأَثْنٌ وَأَثْنٌ؛ واتصال مدلولها بمدلول الحمارة والمرأة والهودج يجتمع له في الذهن ألفاظ /إناث/ و/أثان/ و/أثن/. وينشأ تصور قوي من أن الأوثان صخورٌ طبيعية في الماء أو على الماء أو صخور معينة، مع صور أو بلا صور، تقام بجوار الماء وتمارس تجاهها شعائر دينية تؤدي إلى مؤسسة أو مؤسسات تعنى بأمور واقعية وأخرى غيبية. فالخبر عن هُيْلَ أنه «كان موضوعاً على بير في جوف الكعبة». والأزرقى يقول كان اسمها الأخف أو الأخفش. وأنا أربط الخوف بهذين اللفظين. كما أرى في اسم الخفاش الدلالة على الليل - الذي فيه خوف - وعلى الأماكن المأهولة عند أحواض المياه. «وقد اختصت اللات بالوادي الخصيب الذي تقع فيه مدينة الطائف». ومجتمعاتنا ما تزال حتى الآن تعتقد أن مصانع المياه: المهجور منها والمدفون والصالح والقريب من الحي والبعيد، إنما هي مسكونة بالجن والأرواح الخفية. ولعل الأصل في هذا الاعتقاد كامن في أن الجد هنا وروحه تطوف بالمكان. ولعل مجتمه أو مثواه أو مقامه في أعلى أمكنة المكان. فهذا الجد هو الأثل، هو الأثن، هو الروح المقدس. والله بالانكليزية /god/. والأوساط الجبلية يلفظ بعضها /جَدَ/ بإشمام فتحة الجيم ضمة: جَدٌ. ومن لطف الصدف (!) أن الماء بالانكليزية water: /وَتَر/؛ والتعاقب بين التاء والتاء والراء والنون مطرد:

| | | |
|---|---|---|
| و | ت | ر |
| و | ت | ن |
| و | ث | ن |

دون أن ننسى إمكان تحول الواو ميماً: و ← ف ← ب ← م. مما يؤدي بالـ /water/ إلى /مطر/.

هذا الملمج الذي نتخيل أجدادنا يلجأون إليه بطرح سؤالاً لم نجد عليه الجواب الشافي بعد: لماذا أوكل الأقدمون حراسة المورد الأول للحياة، الماء، الى حارس غيبي لا إلى ناظور من الأحياء؟ وفي أحسن الأحوال كان الناظور (الناطور) الحي وكيلاً

للغائب. قد يكون السبب في أن الناطور الحي يحتاج إلى آخر فالأخر، بلا نهاية. أما الغائب فإنه يرانا دون أن نراه، وعنده الجن. قد يكون الأهم من الحصول على جواب الالتفات إلى تطبيع الذات خارج الذات. والنظر إلى طلعتها في وجود مستقل يتعاطى معه الفرد والجماعة تعاطياً يختلف من حد / أنا صانع تلك الهيئة / الى حد / تلك الهيئة خالفتي / . وأظن أن المشروع الثقافي كله محكوم بطلوع فكرة يُختلف في النظر إليها الاختلاف الذي ذكرناه. فتقول وتستعد لأن تقبل أن الحياة أو جانباً منها مبنئ وفق هذه الفكرة؛ وإما أن تتمرد على الفكرة وتعتبر أنها فكرة عابرة مثل نسمة من أنسام الفكر لينة أو خشنة. ويكبر خطر الفكرة بقدر ما تستحوذ على الكثير أو القليل من عقول الناس وبقدر ما تشمل أو يقل شمولها للحياة. فالعلم يحاول القبض على الجزئيات، والفلسفة والدين يحاولان القبض على الكليات. وعند تصديق الناس للفكرة يعني أنهم آمنوا بها ويعني أنهم أخذوا يجيرون طاقات وقوى واقعية لقوة فكرية خرجت منهم وانفصلت عنهم واستولت عليهم بما يرفدون بها من قوى واقعية يتجنبونها يومياً. وإذا ما أذعنت النفوس للفكرة يسقط الخوف من خروج البعض عليها، لأن الذين لم يخرجوا يمنعون الخروج. وهكذا يصبح الأحياء، ويصبح جزء من عالم الشهادة جنوداً عند الفكرة التي صارت خارج الناس والتي حُكمت بمصائرهم. وقد لا يجتمع المعارضون أو المرتدون إلا تحت لواء فكرة أخرى نقيضة أو مضادة أو مختلفة. وعندها تصبح جماعات البشر جيوشاً بقيادات من خارج أنفسهم يقودهم وكلاء ذلك الغيب، ويترجم للقادة مثيئة «الرب» أو «الربة» عند اللزوم كُهان أكفاء.

وإذا رجعت من / أن / إلى أمها / تن / تجد: «التن: الترب والجن. والتن: الشخص والمثال». و«التين: ضرب من الحيات من أعظمها. والتين: نجم رأس [ب] يُعَدُّ مع السعد والذنب مع النحوس [و] تن بالمكان: أقام».

ف/ تن / مدتنا بمعنى «الترب» والشخص والمثال. وهما ضمن تسمية التشابه بين الأشخاص باسم «مواطنين» والواحد مواطن. ولعل مادة / ت رب / أقرب لأن يخرج منها معنى المواطن من السواد إلى البياض لو لم يكن في الوطن سياسة وعقيدة. و/ تن / بمعنى «أقام» اتحدت في الدلالة مع أخواتها / وت / و/ وت / و/ وطن / . . . وليس فيها معنى الماء إنما وصلت الأرض بالسماء عبر اشتراك نجم مخصوص وحية مخصوصة باسم «تتين». ولكن الأسطورة الجميلة حول التين تجعله أعظم حيات البحر، تشكوه الحيوانات البحرية إلى الله، فترفعه سحابة وتحمله إلى بلاد أبجوج وأمجوج، فيجتمعون على لحمه ويأكلونه. هذه الأسطورة تصوره حيواناً مائياً، ومخيفاً لم تقو عليه حيوانات الماء الأخرى فاستعانت عليه بالسماء. ولعل في هذه الأسطورة إشارة إلى أن السحب تنطلق من البحر. وإذا كان لهذه الأسطورة من خدمة في حقل بحثنا، فتكون في موافقتها للاعتقاد بأن المياه مسكونة بكائنات مخيفة ظاهرة أو خفية. معهودة أو غير معهودة. ولعل المياه والتفاف الأشجار من حولها يخفي ما يخفي: إن وراء الأكمة ما وراءها. وإني أرشح المياه أصلاً لأساطير الجن. وكأن التصور كان على هذه الصورة. الأرض لها سكانها. وكل أرض يحميها أهلها. والمياه لها سكانها وكل مياه يحميها أهلها. والسموات لها سكانها وكل سماء يحميها سكانها، وما الجن سوى عشائر الماء. فإذا اعتديت على مواطنها هاجمتك ودافعت عن نفسها. أما إذا استرضيتها فإنها تكرمك وتبذل لك ما عندها من خيرات جمّة. وما عندها من خيرات هو المياه نفسها والنبات والحيوان على ضفاف الماء أو فيه. فيلاد الجن «من أخصب البلاد وأكثرها شجراً وأطيبها ثمراً» (الحيوان).

وتسلمنا / تن / إلى / ظل / من خلال التحول الذي يعتري حروفهما فيحيل التاء طاء والنون لاماً أو العكس: ت ← ط، ن ← ل. وأول معانيها المعجمية الماء. فوالظل: المَطَرُ الصَّغَارُ القَطَرُ الدائم، و«ظَلَّتْ بلاذك: أُمِطَرَتْ»، و«الطَّلَى: الشربة من الماء»، و«الطَّل: هَذَرُ الدَّم»، و«ظَلَّ الله وأظله أي أهذره»، و«الطَّلَاء: الدم المَطْلُول». و«الطَّل ما شخص من آثار الديار، موضع من صحتها يهيا لمجلس أهلها، وقيل: ظَلَّ كل شيء شخصه». وقال «أبو عمرو: الطَّل الحَيَّة، وقال ابن الأعرابي: هو الطَّل، بالفتح، للحية» وقال الأصمعي: الطَّلالة الحُسْنُ والماء. قال «أبو عمرو: التَّطَالُ من فوق المكان أو من السَّتر». ولا شك في أن / ظل / تدفعك إلى / هطل / بزيادة الهاء.

إذا كان الماء وصحن الدار يفضيان بالمادة إلى / وطن / فإن هدر الدماء يفضي إلى صبيها على الأوثان أو إلى التقاتل. ولا ننس أن الأصنام أو تماثيل مصغرة عنها كانت تحمل إلى ساحات المعارك لتتصر أصحابها. فقد التقت هذه المادة مع سابقتها باشتغال معانيها على الحَيَّة. ولم تخل من معنى «الستر».

وكان الأولى بنا الانتقال من /تن/ إلى /كن/ أو /تم/. لأن التحول بحرف أغلب منه بأكثر من حرف: تن/كن، ت-ك. أول ما تقرأ في لسان العرب في /كن/. «الْكُنُّ والكُنَّةُ والْكِنَانُ: ومَاءٌ كُلُّ شَيْءٍ وَسْتَرِهِ. والْكِنُّ: البيت أيضاً، والجمع أَكْنَانٌ وأَكْنَةٌ. وفي الحديث: فلما رأى سرعتهم إلى الْكِنِّ ضحك». وَكُنْتُ الشيء، سترته وصته من الشمس وفي التنزيل: «وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا»، والأكنان: الغيران ونحوها يُسْتَكُنُّ فيها، والْكُنَّةُ: السقيفة؛ والكنانة كالجعبة غير أنها صغيرة تتخذ للنبل. والكانون الذي يجلس حتى يتحصى الأخبار والأحداث لينقلها، قال الحطية: أغرباً لآل إذا استودعت سراً وكانوا على المتحدثين؟ والكانون: الموقد [والمصطفى].

المعاني الوطنية في /كن/ هي: الكُنُّ البيت، وكننته سترته وصته. وأكنان الجبال والغيران وكنانة السهام، والكانون: الموقد، وجميع هذه المعاني مما يكون في الكِنِّ مستوراً. ويضاف إليه: «كُنْتُ العلم» من «كننته وأكننته في الكِنِّ وفي النفس». ونقرأ في الهامش الأخير لمادة /كن/ في لسان العرب: «ومن أسماء زمزم المكنونة» انتهى. «وبنوكنة: بطن من العرب» و«كنانة: قبيلة من مضر. ولولا الاسم الذي أعطي لزمزمت لكانت دلالات المادة خلواً من الماء.

ونجد قناة سرية تصل بمدلولات /كن/ (من خلال «الكانون الذي يجلس حتى يتحصى الأخبار والأحداث لينقلها» وتوليد الهاء من فتحة الكاف) بمدلولات /كهن/ التي نقرأ في معجمها: قال [الأزهري]: «الكاهن: الذي يتعاطى الخبر عن الكائنات في مستقبل الزمان ويدعي معرفة الأسرار... كثيرٌ وسطيحٌ وغيرهما، فمنهم من كان يزعم أن له تابعا من الجن ورثا يلقي إليه الأخبار». وكفر الإسلام من يسمعون من الكهان: «وفي الحديث: من أتى كاهناً أو عرافاً فقد كفر بما أنزل على محمد أي من صدقهم». قال الأزهري: فلما بُعث [محمد] نبياً وحُرست السماء بالشهب ومنعت الجن والشياطين من استراق السمع وإلقائه إلى الكهنة بطل علم الكهانة، وأزهد الله أباطيل الكهان بالقرآن... وأطلع الله (س) نبيه (ص) بالوحي على ما شاء من علم الغيوب التي عجزت الكهنة عن الإحاطة به، فلا كهانة اليوم بحمد الله ومَنه وإغاثته بالتنزيل عنها».

هذا الخبر لا ينفي عن الجن والشياطين سوابق استراقها أخبار السماء ونقلها لإلقائها إلى الكهنة. بل يؤكد الأزهري في معرض الإخبار عن إبطاله لبغني الله عنه بالتنزيل: «فلا كهانة اليوم...» وهو يهاجم الكهانة بالطبع لاعتبارها لصووية و«استراق». واستنكار هذا التجسس على السماء وأخبارها يشبه الصورة المكبرة لاستنكار التجسس على الأرض: «وكانوا على المتحدثين؟». وينفعنا قوله «حُرست السماء بالشهب» لأنه يقوي الظن بأن العرب كانوا يعلقون أهمية كبيرة على دور الأجسام المنيرة في الحراسة حتى عبدوها. ولعل الإسلام قد كرس دور الشهب في الحراسة لكن بأمر من الله.

هذا هو الكاهن الذي كان أميناً لدى الوثن، يسفر عن أخبار السماء وإرادة السماء على الأرض ويسفر بينهما، قد نحاها الإسلام ونُحي معه التعبير بـ كاهن غمّن بلغ من العلم والحدق والحيلة درجة التعجب: ما هو قليل، كاهن! وإيانا أن ننسى هذا التحول: كَنَ ← كهن، كَنَ ← كَلَّ ← قَلَّ ← قال (قول/ قيل).

في /كهن/ التقى الإنس والجن. ولو أنهما التقيا في جهن لكان لغويًا أيسر على الفهم. لأن من عبقرية العربية أن تمد الفتحة الأولى من الثنائي المضعف بهاء بحيث تتحول جَن إلى /جهن/ ومن غرائب الصدق أن يشيع المثل الذي فيه: وعند جهينة الخبر اليقين، كان جهينة سيدة الكاهنات أو الكهنة. غير أننا لا نجد في /جهن/ سوى: «جهينة تصغير جهنة، وهي مثل جهمة الليل، أبدلت الميم نوناً، وهي القطعة من سواد نصف الليل». والجن على كل حال لا تجد خيراً من هذا السواد سترًا لها، فـ «جَنُّ الليل: شدة ظلمته» أي القطعة الأحلك منه.

بعد هذا استطراداً، إذ الأولى بنا أن نمر من /كن/ إلى /جَن/ قبل /كهن/ و/جهن/. فما بين /كَنَ/ و/جَنَ/ من معانٍ مشتركة كثير: «جَنُّ الشيء يجنّه جناً: ستره. وكل ما سترَ جَنَّ وأجَنَّ». والجنين هو القبر لستره. «والجنين: الولد ما دام في بطن أمه لاستتاره فيه». وأشد ابن الأعرابي: «وَجَهَرَتْ أجنةٌ لم تُجْهَر» يعني الأموات المندفنة. والجَنُّ الشواح والجَنُّ الثُرسُ، و«الجنة: الدرع» و«الستر»، و«الجنان: القلب لاستتاره». هذه معانٍ تفيد أشياء مستترة. إلا أن المعنى الأسرع إلى الذهن من مادة /جَنَ/ هو

«الجن»: ولد الجن... وهم الجنة... سُموا بذلك لاجتنانهم عن الأبصار... فلا يُرون... وقُسرَت الجنة الملائكة في التنزيل «ولقد عَلِمَت الجنة إنهم لمُحضرون»، وجعلوا بين الله وبين خلقه نسباً فقالوا: الملائكة بنات الله. «وجن الرجل جنونا وأجنه الله فهو مجنون... إنما هو من نقصان العقل». «والجان: أبو الجن خلق من نار ثم خلق منه نسله». «والجان: الشيطان». «وفي الحديث أنه نهى عن ذبائح الجن» وهو أن يبني الرجل الدار فإذا فرغ من بنائها ذبح ذبيحة... [ف] لا يضر أهلها الجن. «والجان ضرب من الحيات». «وجنت الأرض إذا قاءت بشيء مُعجِب» وأرض هادرة متجنتة: تبال من عُشْبها» وجنون الذباب: كثرة ترمجه. «والجنة الحديقة ذات الشجر والنخل» والاستجنان: الاستطراب. «وكانت جنة وذو المجاز وعكاظ أسواقاً في الجاهلية».

اقتسم الوطن والوطن مادة /جَنَ/. فكانت المشتقات الدالة على الملائكة والشیاطين وسائر أنواع الجن وعلى الأعمال التي تنسب إلى العالم الغيبي الخيالي المنسوب إلى تلك الكائنات من نصيب الوثن (و/نصيب/ من شقائق الانصاب التي يُستقسم لديها)، والجنة في القرآن وطن موعود يضحى لأجله بالارواح؛ أولئك هم الشهداء.

ونستفيد من الهمز الذي تدفع بها العربية الى مقبَل الثاني المضعف بدلاً من الشدة أو لوزن ومعنى مختلفين. فننظر في /أجن/ ونجد أن معانيها تدور حول الماء الأجن الذي قد «تغير غير أنه شروب». والأجنة لغة في الوجنة. «والمنجنة: مدقة القصار، وترك الهمز أعلى لقولهم في جمعها مواجن». والمنجنة من غير الهمز هي الميجنة. ولعلها اللفظ الذي يستهل به ساحل الشام أغاني الميجنة. كان القصارين كانوا يوقعون دق الثياب التي يغسلونها والأغاني على وزن: عالميغ يا بُو الميغ يا بُو الميغنا يا بُو العيون السود شويجيك أنا «والأجانة: البركن وأقصعها إجا واحدة الأجائين» فهذه إحدى شقائق /جن/ ومعناها لا يخرج عن العمل بهذا الماء الأجن.

ونجد في /وجن/ غلظة أرض وشظفأ لا نخرج منهما إلى لين إلا حين نقرا: «الرجين: شط الوادي». هـ، ع، ء، ح، و، ي: هذه الحروف تُقبَل على الثاني المضعف وتحل محل تضعيفه. كما أن الألف والواو والياء تتوسط فاءه وعينه وتقضي على التضعيف لذلك نراجع من أجل /جَنَ/ الجيم والنون على اختلاف الترتيب مع كل ما يستقبلانه أو يتوسطهما من هذه الحروف المذكورة.

لأجل هذا تتحول من /وجن/، بتحول جيمها دالاً، إلى /ودن/ حيث نعرف أن «أثَدَن الشيء أي أثَل» وأنه «يقال: جاء مَطَرٌ وَدَن الصخرة أي بَلَّه ولينه، على المبالغة، وأن «الودان مواضع الندى والماء التي تصلح للغرس». وقد «جاء قوم إلى بنت الخس بحجر وقالوا: أخذي لنا من هذا نعلًا، فقالت: دئوه» أي بلّوه أولاً، ردًا على التعجيز بتعجيز.

وأهم ما يبالعنا في هذه المادة ما جاء على لسان اللين من أنه قال: «الدَّيْنُ من الأمطار ما تعاهد موضعاً لا يزال يربُّ به ويصبيه» وعلق على ذلك بالقول «لا يُعرَف الدَّيْنُ في باب الأمطار».

والإحاة التي تنتبع ألفاظها (أفرادها) إنما تلاحظ المعاني التي تنضاف إلى الدنيا الاجتماعية وإلى الدين. ولمسنا في أكثرها نصيب العقيدة والخيال وميزناه من نصيب الحس والعقل والوظائف الواقعية. وأكثر ألفاظها يشتمل على معنى المطر والماء. حتى /هدن/ فإننا نجد فيها معنى الدعة والاسترخاء والمودعة بين المسلمين والكفار. ومطالعها تصرف النظر عن إمكان التصريح بدلالاتها على الماء حتى تبلغ السطرين الأخيرين ونقرأ: «الهذنة: القليل الضعيف من المطر». فقد يكون ذلك «الهذنة» بتحول التاء دالاً. ولكن /هتن/ هي شقيقة /أتن/ وهما وليدنا /تن/ شقيقة /ئن/ و/طن/.

2- الوثن والصنم:

لنحاول الآن أن ندرج مدرج تحول النون بعد تحوّل التاء. إن النون في طريقها إلى الميم والراء واللام. تتحوّل ميماً بسبب الجرسين الحنجري والأنفي المشتركين بينهما، وتتحول راءً ولأماً بسبب الجوار في المخارج وبسبب الجهر أيضاً. فقد فسر

الزَّجَاجُ / تَمْ / من «رَأَيْتَ تَمْ» بـ«الجنة». والثَّمَامُ نَبَاتٌ وشَجَرٌ. وكل ذلك ضمن العناصر المادية. «وَتَمْ الشيء جمعه» و«الثَّوم لغة في القَوْم وهي الخنطة»:

ن ← م ، ثن ← تَمْ . ث ← ت ، ثم ← تَمْ .

فماذا في /تَمْ/؟ يغلب على هذه المادة معانٍ يعود أكثرها الى عالم الدين البدائي: «الْتِمِيمُ: العُوْدُ، واحدته تَمِيْمَةٌ» و«التَمِيْمَةُ خِرْزَةُ رِقْطَاءٍ تَنْظُمُ فِي السَّيْرِ ثُمَّ يَعْقِدُ فِي الْعُنُقِ». وموقف الاسلام من هذا الطقوس ظاهر في الحديث «من عَلَّقَ تَمِيْمَةً فَلَا أُنَمُّ اللَّهُ لَهُ»؛ ويقال: «هي خِرْزَةُ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ فِيهَا تَمَامَ الدَّوَاءِ وَالشِّفَاءِ». ويقول ابن مسعود موضحاً موقف الاسلام: «التَّمَامُ وَالرَّقِي وَالْتَوْلَةُ مِنَ الشَّرِّ». و«رَجُلٌ مُتَمِّمٌ إِذَا فَازَ قَدْحُهُ مَرَّةً بَعْدَ مَرَّةٍ فَأَطْعَمَ لِحْمَهُ الْمَسَاكِينَ». وَتَمَّمَهُمْ أَطْعَمَهُمْ نَصِيبَ قَدْحِهِ». وهذا أيضاً رجس من عمل الشيطان. أما المعاني التي تفيد الاكتمال فلا اعتراض دينياً عليها، وما زالت امهاتنا الوارثات يدعون لمن أفضل: الله يتمم عليك.

ويمكن أن نلحق بـ/تَمْ/ مادة /تَامَ/ حيث نجد من معاني التنجيم والوثنية «التَّوَامُ من منازل الجوزاء، وهما تَوَامَانُ. والتَّوَامُ السَّهْمُ من سهام المَيْسِرِ، قيل: فِيهِ قَرْصَانٌ وَلَهُ نَصِيبَانِ» والتَّوَامَانُ: نبات. ومن /تَمْ/ يقول ابن سيده: «التَّوْمُ شَجَرٌ...» [..]. كيفما زالت الشمس تبعها بأعراض الورق، وواحدته تَوْمَةٌ [..] وأكثر منابتها شَطَّانُ الأودية». وقد سُمِّيَ أمثال هذا النبات بـ«عَبَادِ الشمس». والتسمية تَمْ عن مطلق الاسم، وتعطي صورة عن تصرفهم هم في عبادتهم. ولنعلم أن الاستقسام كان يتم بين أيدي الأصنام. وانظر الى «التَّوْلَةُ» أعلاه واعتبر مادتها /تَوَلَّ/، واذكر بدر «التَّمَام».

وقبل أن نخرج من الميم ننظر في /طَمْ/ و/أَمْ/ و/أَمْ/ و/أَمْ/ و/أَمْ/ و/وَجَمْ/. يقول ابن شميل في الأخيرة: «الْوَجْمُ حِجَارَةٌ مَرْكُومَةٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ عَلَى رُؤُوسِ الْقُورِ وَالْإِكَامِ، وَهِيَ أَغْلَظُ وَأَطُولُ فِي السَّمَاءِ مِنَ الْأُرُومِ [= «قُبُورٍ عَادَةٍ»] قَالَ: وَحِجَارَتُهَا عِظَامُ كَحِجَارَةِ الصَّيْرَةِ وَالْأَمْرَةِ، لَوْ اجْتَمَعَ عَلَى حَبِيرٍ أَلْفُ رَجُلٍ لَمْ يَحْرُكُوهُ، وَهِيَ أَيْضاً مِنْ صِنْعَةِ عَادٍ، وَأَصْلُ الْوَجْمِ مُسْتَدِيرٌ وَأَعْلَاهُ مُحَدَّدٌ، وَالْجَمَاعَةُ الْوُجُومُ [..]؛ ابْنُ الْأَعْرَابِيِّ: بَيْتٌ وَجَمٌ، وَالْأَوْجَامُ: الْبُيُوتُ وَهِيَ الْعِظَامُ مِنْهَا»؛ فهل الوجم أصل الوطن؟ أم الأكَم؟

المعنى الشائع لِـ/وَجَمْ/ هو «السكوت على غيظ»، كأنها لفظاً ومعنى من شقائق /غَمْ/. ولكن المعنى الأول يبدو من تطورات /وَجَمْ/ إلا أن يكون السكوت والغيظ باديين في تلك الأبنية الضخام. وغالباً ما توصف الآثار بمثل هذه الصفات: «تحرك أبا الهول هذا الزمان...» وعندها يكون الوجوم مشتقاً من اسم هذه الآثار لا من /غَمْ/. ويبدو أن /وَجَمْ/ و/وَجَمْ/ من /وَجَمْ/؛ ج ← ك ← ق.

هذا الشكل من البيوت الموصوف في /وَجَمْ/ هو شكل بيوت الطين الشائعة في الأرياف السورية. ونعتقد أن هذا البناء قديم وهندسته على هيئة الخُص. والأشكال التي تبنى عليها الأوتان مختلفة الأوصاف. أوليس فيها ما يشبه هذا الشكل؟ غير أن يكون بيت الوثن ذا قبة على هذا الطراز (القبة الحمراء؟) والملفت للنظر أن أحجام هذه الوجوم وأقذار حجارتها مما لا يبنى للإنسان العادي. ففوق ما هي عليه الأهرام، تكون هذه الأبنية للملوك والآلهة. ومن معاني /وَجَمْ/ «ردي». وهذا قد يعرب عن موقف أصحاب اللفظ من أصحاب تلك الحضارة.

كان حق الكلام أن نصل /وَجَمْ/ بـ/وَجَمْ/ لكن الرياح لا تجري أبداً على ما يرام. وإننا سنقف متأملين عند هذا المعنى لِـ/وَجَمْ/ أي «وَتَمَّتِ الْحِجَارَةُ رَجُلَهُ وَتَمَّأَ وَوَتَامَأَ: أَذْمَتُهُ». ليس عندنا ما يدعو الى التأكيد بأن فعلاً من /وَجَمْ/ استعاض عن النون بالميم، أي /وَجَمْ/، واختص بمعنى الْجَزْح - وإذا شئت زدت قللت: الذبح والنحر للأوتان. وفي المادة معنى آخر ملفت للنظر هو في «الوثيمة» حيث الْقَسَمُ، والذي أخرج الْعَدَقُ من الجريمة والنار من الوثيمة»، جعلهم يستنتجون أن الوثيمة حجر القداحة، (الصُّوَان). لا نريد أن نرفض ما يقولون؛ لكننا نريد أن ننظر أن بعض حجارة الأوتان، لدى عَبَدَةِ النار والرَّعْد والنجوم، إنما كانت صوانية، أي مما يقدح ويسهل استخراج النار منه وبه. ولا شك في أن وسم أخت وَجَمْ. وإن لفظ /صان/ ليس يبعد عن /زان/ و/ثان/ و/وَجَمْ/. ولكنك لن تجد في معجماتنا /ثين/ ولا /ثون/ فعليك عندئذ ان تجري الى /تين/ و/زنا/. ولك في

تفسير «التيّن والزيتون» «جبلان بالشّام»، «مسجدان بالشّام»، «جبال ما بين حلوان وهمدان»، «جبل في بلاد غطفان»، هذا بالإضافة إلى قولهم: «التيّن والزيتون هو الذي نعرفه»، و/تون/ قليل الفائدة، لكنما تكثر أسماء الجبال حول /وثن/. ولنا كلمة في /صان/، إذ علينا أن نعتبر صان من /صن/. فلا بد من أخذ تلك من هذه. وقد يخطر في البال أن /صن/ أصل الصنم. وأن الميم يمكن أن تكون ميم /أم/ التعريف عشقت آخر الكلمة. وهذا موضوع بحث جدير كل الجدارة بالاهتمام، لما قد يكشفه من أن جذر /ام/، الذي منه الأم والأُم، أصل لأداة التعريف التي تركت ميمها في صدر الفاظ كثيرة وفي خواتمها، مع ما نُجيّ فيها من مناحي الدلالات المختلفة. وهذه مسألة تحتاج إلى متابعة وافية. وأبدأ النظر في /صَنَ/ من ألعاب الطفولة. لقد كان بين البنات التي نلعب بها واحدة مصنوعة من الحجر الصلد الداكن، وغالباً ما تكون هي القاذف واسمها «كُلّيح صَنَ». ويقول العاملون: هذا «حجر صَنَ». وحجر الصُنَ، عدا الدكنة، على الصفة التي ذكرت مهما كان كبيراً أو صغيراً وهو غير حجر الصُّوان. فقد يكون لفظنا /صَنَ/ تحولاً من /أصمَ/. لكن صَنْتُ أذني بمعنى طنت. وفي اللسان: «المُصِنُ: الساكت» وتقول العامة: /صِنَ/ بمعنى أنصت واستمع لما ينادى أو لما يقال. وإذا دقت جرساً من حديد أو خشب صلد فإنك تسمع ترديداً طفيفاً كالذي نسمعه عندما نقول: صَنْتُ أذني. وهناك صخر إذا ضربته بالمطرقة يطن أيضاً لشدة صلابته وتماسكه كأنه قطعة معدن متراس صرف. وأغلب ما يطلق عليه حجر /صَنَ/ هو من هذا النوع في الصفاء وليس في الدكنة. ولنا في /صَنَ/ من المعاني المعجمية ما يذكرنا بذبائح وعناثر الأصنام. لا شك في أن نتناً كان ينبعث من أماكن التّخر وفي مواسم معينة. ولعله هو الذي خلق لنا «المصن: المتن». و«الصُّنّة» عند العاملين روائح المزاحل المتننة. وصِنين من مشاهير قمم لبنان. وفي اللسان: «المُصِنُ: الشامخ بأنفه تكبراً أو غضباً»، و«من العظمة». فقد تميل إلى الاعتقاد بأن هذا المعنى دخل /صن/ من هياث بعض الأصنام.

بعد هذا نقبل على /صون/ لنجد فيها «الصُّوان» و«الصُّون» و«التَّصُون» و«الصائِن من الخيل». والقريب بين الصنم والصُّوان تظهر في وصف الأزهري له: «حجارة صلبة إذا مسته النار فُقع تفقيعاً وتشقق، وربما كان قداحاً تقتدح به النار، ولا يصلح للنُّورة ولا للرضاف» والصُّون والصيانة مرجوان يرجوهما الناس من آلهتهم وأربابهم. والعاملون عندهم البيت «المُصُون» البيت الذي يسور من الحجارة لا من غيرها. ولا يبعد أن تكون /صون/ أخت /سور/ من خلال أخوية الصاد والسين والنون والراء:

| | | |
|-----|---|-----|
| ص | ↔ | س |
| ن | ↔ | ر |
| صون | ↔ | سور |

فـ «الصائِن من الخيل» هو «القائم على طرف حوافره من الحَفَا أو الوَجَى»، وأما «الصائم فهو القائم على قوائمه الأربع من غير حَفَا» وهنا تدفع بك /صون/ إلى /صوم/. وهذا مُبرّر صوتياً ودلالة:

| | | |
|---|---|---|
| ص | ↔ | ص |
| و | ↔ | و |
| ن | ↔ | م |

إن اللفظ الذي يوافق غيره في واقعه وأصله ومدلوله إنما هو شقيقه. لذلك لا نجد من أنفسنا الكفاءة على بت الأمر قبل النظر في /صم/. فإذا ساورك اعتقاد بأن /صم/ أخت /صن/ فإنك تدرك من بقايا أحوال العرب غير ما أدركه المعجميون. فقولهم «صُمْتُ حصاةً بَدَم» يفهم منه بعضهم «أن الدماء لما سُفِكت وكثُرت استتعت في المعركة، فلو وقعت حصاةً على الأرض لم يُسمع لها صوت وأنها لا تقع إلا في نجيع». و«يقال: صَمِي صَمَام، وصُمِي ابنة الجبل، يقال ذلك عند الأثر يُستفطع». و«يزعمون أنهم يريدون بابنة الجبل الصدى» و«يقال إنها صخرة». ابنة الجبل صخرة، وابنة الجبل يمكن أن تكون الصنم التي يعبدونها. وقد لا يفهم قولهم لها صَمِي إلا على ضوء أسطورة الصدى حيث لا يسكن طائر القليل قبل أن يشار له ويروى بالنحر. وفي الحديث: أنه نهى عن اشتغال الصُّماء؛ فما هي هذه الشملة إذا لم تكن لباس «الصُّم» أو عبدة الصنم؟ قال أبو عبيد: اشتغال الصُّماء أن تجلل جسدك بثوبك نحو شملة الأعراب بأكسيهم [...] الصُّماء ضرب من الاشتغال. وفي /صم/ معنى

القوة والسلاح، و«رجل صميمٍ: مَحْض»؛ و«سيف صمصام و صمصامة: صارم». وقال الليث: اسم للسيف والليل. و«الصمصمة: الأكمة الغليظة التي كادت حجارتها أن تكون متتصة». و«الصمصمة: الجماعة من الناس كالززمة». لماذا سموا جماعة الناس صمصمة؟ أليست هي الجماعة التي تلتقي حول الصنم ولكن بحذف النون؟ ألا تجمع كلمة /الحج/ معنى المكان والفعل والحجج؟ ولماذا يشترك اسم الليل مع اسم السيف في لفظ واحد؟ أما في ذلك شيء من صلة الصوان بالنار بالنجوم بالشمس والقمر؟ والبرق؟ هذه الطقوس الوثنية تتوقف إعادة بنائها على قدرة البحوث الأثرية - اللغوية لجهتي الكشف والترميم. ومن لا يفقه الحد الأدنى من قوانين تفرع الكلام يستغرب أن يُربط بين /صم/ و/صام/ و/صنم/. إلا أن الصوامت من الألفاظ هي، في الغالب، كالأصلا ب من الهياكل.

نقف عند الـ/صَوْم/ وما جاء عنه في الحديث والتزيل. جاء في الحديث: «قال النبي (ص): قال الله تعالى: كل عمل ابن آدم له إلا الصَوْم فإنه لي». (لسان العرب، صوم). ونجد هذا يوافق الصوم الذي في النذر من قوله تعالى: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً﴾ وأرى - والعلم عند الله - في معنى الصوم الأضحية. فالصوم هو ما نذرته لتبذله على المذبح من البواكير قبل الاسلام. وما تزال لفظة /صَوْم/ في كلام من تبقى من رعاة بين الجليل وحوران وصور ترد في جملة تدل على سن الشاة. «عندي عزة على الصوم (عالصوم)». ويقصد أنها لم تلد بكرها بعد. والبكر هو الذي كان يقدم أضحية للالهة. وفي قوله: «من مات فليصم عنه وليه» يقول ابن الأثير: أكثر الفقهاء على الكفارة [. . .] إذ كانت تلازمه. وأكرر: الكفارة كانت تلازم الصوم. والصوم، في اللغة: الإمساك عن الشيء والترك له. ومعها نقراً: «والصَوْمُ: البِيعَةُ، والبِيعَةُ: «كنيسة النصراني وكنيسة اليهود». وفي الجمهرة: «النَّسْكُ أصله ذباح كانت تذبح في الجاهلية». والمكانس في الأصل من تلك الأكنان. فترك معابد كانت قبل النصراني وقبل يهو-د (يهوى + د = يهود). فلعل الصوم، بهذا المعنى يبيوت الأصنام التي كان يجتمع فيها من يمارسون طقوساً دينية. وفي /صوم/: «صام النهار» و«صامت الرياح» و«صامت الشمس»، و«كان الثريا علقت في مصامها». تبدو هذه العبارات لغة تعبر عن بعض الكائنات بما تعبر به عن الناس.

مما لا شك فيه أن تركة الجاهلية التعبيرية التي كانت تحمل كل تفاصيل اللغة الدينية قد بادت ولم يبق منها سوى ما ذكره المسلمون لموافقة الإسلام، أو ما قد ذكروه في معرض نهي الإسلام عنه، أو ما بدا حيادياً لا يكتسب له من جهة الديانة لأنه لم يمسسها بسوء. ومن هذا الأخير لفظ /الصوم/ الوارد في قولهم: «صام الرجل إذا تظلل بالصَوْم». وشرح ابن الأعرابي الصوم قائلاً: «الصَوْمُ: شجر على شكل شخص الإنسان كريح المنظر جداً، يقال لشمره رؤوس الشياطين».

فهذا شجر قريب الاسم والصورة من الصنم. ولعله كان موجوداً في بعض مواقع الأصنام لبني شبابة؛ وعن هذا الشجر قال ساعدة بن جوبة: «مَوَكَّلٌ بشدوف الصوم يرقبها من المناظر مخطوف الحشا زَرم» و«شدوفه: شخصه، يقول: يرقبها من الرعب يحسبها ناساً». والصَوْمُ: رمضان؛ والصوم: «الصبر على الطعام والشراب والنكاح».

ونرجع الى /صَمَمَ/ وننتقل منها الى /صنم/، مع أن هنا سبلاً أخرى تفضي إلى لفظ /صنم/. والصنم في لسان العرب: «واحد الأصنام، يقال: مُعَرَّبٌ صَمَنٌ، وهو الوثن». وبعد مقابلة بين معاني /صنم/ و/وثن/ يقول: هو ما اتخذ إلهاً من دون الله. ويخرج المطالع لمادة /صنم/ في لسان العرب كالمقتنع بأن هذا اللفظ غير عربي. فليس منه فعل ولا صفة، مجذوم مذموم، لا ذكر لشيء من أسرته سوى «الصنمة» و«النصمة» أي «الصورة التي تعبد» والداذية. لكننا نقراً في تاج العروس عن القاموس: «الصَنْمُ: خبث الرائحة»، وهو المعنى الأول. ومن هذا المعنى تتصل /صنن/ بـ /صنم/. وما يعقل من ذلك هو أن الذبائح أمام الأصنام كانت تفشي في الجو - بعد أن يتن الدم - روائح كريهة منتنة إضافة إلى تنن الفروث. ولعل هذا ما دعا أبا نؤاس إلى القول: «ولست بأكل لحم الأضاحي». ويزيد تاج العروس: «الصنم: ما كان على صورة خلقه البشر والوثن ما كان على غيرهما». وهذا النفي لخلق البشر عن الوثن يقرب صورة الوثن من الطوطم. ويجدر بنا النظر في /ططم/: «ططم الماء: علا وغمر»، و«الططم: الماء»، و«ططم رأسه: جزه»، و«الططم: البحر، الماء الكثير، العدد الكثير، وططم الناس: أخلاطهم وكثرتهم، والططم: ضرب من الضان لها أذان صغار، والططمطة: العجمة، والططمطام: وسط النار».

يظهر أن /طمم/ من وسط /ثن/ و/تن/... فيها الماء والغمر والعدد الكثير والحيوان والنار. وليس فيها ما يدل على الأصنام صراحة ولا على العبادة خلا «الطمطم». ويعلق تاج العروس على ما يقال من أن /صنم/ «معرب شمن» بالقول: لا أدري أنه في أي لسان، فإنه في الفارسية بت. ويقول: «صنم تصنيماً: صَوْتُ». وهذا يوثق الصلة بين /صنم/ و/صنن/ بما هي هذه محاكاة صوتية. وما دام هناك شخص اسمه «صَنَام» فإننا يمكن أن نعتبر دلالة الاسم إما على التصنيم بمعنى التصويت وإما على التصنيم بمعنى صناعة الأصنام أو خدمتها كَعَبَاد. و«النَّصْمَةُ» قد تكون النسمة بمعنى الشخص من شقائقها، كما يقال: عبد اللات وعبد الله؛ «ابن الأعرابي: النَّصْمَةُ والنَّصْمَةُ: الصورة التي تعبد». فهذا شديد الوضوح في كون الصنم صورة. و«شمن» التي قيل إن معربها /صنم/ قد تكون ما استكشف لاحقاً باسم «بعل شمين» أو «بعل سمين» الذي معبده في بلدة سِيعَة (ر. ديسو، العرب في سوريا قبل الإسلام، ص122). وفي مادة /سمن/ نقراً: «التسمين: التبريد، طائفة». وهذا الحرف يغري بصلة كبيرة بين الماء البارد والصنم والسمنة. ويزيد اللسان: ابن الأعرابي: الأسماك والأسمان الأزرق الخُلقان. و«السَّنيَّة»: من عبدة الأصنام». كأنما الأصل في «الأسماك والأسمان» لباس السدنة. ومن المشهور عند المتعبدين توارث عادة الاكتساء بالث من الثياب.

لولا كثرة الإشارات على /وثن/ في العربية ولولا عالمية أكثر هذه الجذور الثنائية المضعفة كان يمكن اعتبار لفظ /وثن/ من لفظ أثينا، لما كان للإلهة الإغريقية من تلاق وتفاعل مع اللات، من الطائف حتى ندمر. ولفظ /ثيو/ ٤٤٠ وأثنوس ٤٤١/ إلى جانب أثينا نجد/ثوى/ونجد/عدن/ و/أذن/... وعندنا إلى جانب /صنم/ الد/سنم/ وبجانب /شمن/ أو /سمين/ مادة /س م ن/ التي ذكرت. وتتفق بعض مدلولات الجذور العربية التي توافق /وثن/ و/صنم/ في الأصوات والاشتقاق كثيراً مما نعرفه عن ديانة الوثنيين وأنظمة حياتهم. فمادة /أثن/ التي منها الد/أثن/ يمكن أن تتطور إلى /أثم/:

أ ث ن : ن ← م

[أ ث (ن ← م)] ← أثم

كما يمكن أن يشر من /أثن/ شيء إلى /أثم/ فيما لو امتنع التطور الصوتي بينهما، لأن الألسن والأسماع تحيل النون ميماً وبالعكس. فأتت تقرأ في /أثم/: «الإثم: الذنب، وقيل: هو أن يعمل ما لا يحل له». فقد لا يدخل الذنب في المحرم، لكنه هنا اعتبر غير حلال، أي أنه دخل حيز المنطقة الدينية. وعلى المذنب أن يتأثم بمعنى يستغفر. لكن التأثم قد تعني التقرب من الوثن والتمسح به والتضحية لأجل رضاه. قال ثعلب: «كانوا إذا قامروا فقامروا أطعموا منه وتصدقوا». فهل كان ما يطعمونه، أو ما يربحونه ويطعمون منه يسمى إثمًا؟ أم أن الإثم جنائية مجهولة الجذر الذي طلع منه اسمها؟ لقد قيل: الإثم «هو واد في جهنم». و«شجرة الزقوم طعام الأثيم». والأثيم: الفاجر. وتفسيرهم الإثم بالقمار والخمر يشير إلى أن الإثم عمل كانت تسمح به الأوثان بل كان يجري في حرم الوثن وفي مناسبات (ربما) احتفالية. وقد يكون الفاجر من يفجر الدم أي من ينحر الذبائح، والقاسم من يقسم الجزور وفق ما تأتي القداح، ووفق أنصبة الميسر، أو ما شابه.

و/أثم/ أحت /أثم/ كما هي /ثم/ أحت ل/ثم/. وفي /أثم/ يقول لسان العرب: «أثم يأثم إذا جمع بين شيئين ومنه سُمِّيَ المأثم لاجتماع الناس فيه». و«المأثم: كل مجتمع من رجال أو نساء في حزن أو فرح». و«قيل: الأثرم: الصغيرة الفرج». وأكثر ما يهمنا في هذه المادة لفظ ومدلول المأثم لنسأل: هل كانت المأثم تعقد في حضرات الأثن؟ وهل كانت الأثم، عظام الشجر، أثنًا؟ كل هذا تخمين يخدم الأثرية كما تخدمه.

ونتراجع إلى /وثم/ لتتعلق نحو /وسم/ لأن الثاء تبدل سيناً في الأحوال العادية. وغالباً ما تفعلها المدن. وأول ما يطالعك به ابن منظور قوله: «الوسم: أثر الكي». ثم نقرأ قوله في الوسام: «والوسام ما ويسم به البعير من ضرورب الصَّوَر». ويهنا الالتفات إلى «الصور». وهذه الصور لا شك تختلف من قوم لقوم أي من /وثن/ إلى /وثن/ أو من جد إلى جد. وجاء في الحديث: على كل ميت صدقة وشرحها ابن الأثير: «كل عضو موسوم بضع الله»، ونقل نحن: كل مؤمن، ولكن بلفظ أهل الأوثان والأصنام: كل ميت. ثم نندفع قليلاً لنجد أن «الوسمي»: قَطَرُ أول الربيع». وليقو هذا ثقتنا بأن الهنم كانت يستقى بها المطر. بل إن بعض الأمطار يسمى باسم طالع من /وسم/ شقيقة /وثن/ وشقيقه /وصم/ بنت /صمم/ أخت /صنم/. وإذا

لم تصدق يأتيك ثعلب قائلاً: «أَسْمُهُ بمعنى وَسْمَتَهُ». وأراني مضطراً للتذكير بشرح لسان العرب للوسوم: الوُسُومُ والوُسُومُ العلامات، والوُسْمُ «ثمانون قرية». وعندنا «نجوم الوسمي». وبها نرقى نحو الصفة السماوية درجة أعلى. والْمُوسِمُ تعني المجتمع. ولكن أي مجتمع؟ «مُوسِمُ الْحَجِّ وَالشُّوقِ» مجتمعهما «وكل مَجْمَع من الناس كثير هو موسم ومنه موسم مئى». يبدو أن الموسيم يتجاوز أهل الوثن أو يتجاوز المتسلسلين من جد واحد. إن السوق يقضي أن يتبادل الأقوام بضائعهم على تباعد أعراقهم. «والموسيم: الثابت الحسن». «والوسمة: شجر له ورق يُخْتَضَبُ به وقيل هو العِظْلِم». وهذا اللفظ بعث في شكوكاً كثيرة. هل السلام منه زائدة؟ وتختتم المادة في لسان العرب بالقول: «والوسم: الوَزْعُ، والشين لغة؛ قال ابن سيده: ولست منها على ثقة». المسلمون المتشددون مع جَبِّ المعاني التي تضايق معاني إسلامية أصيلة. لكن اشتغال /وسم/ على معنى الورع يجعلها في صلب الدِّين، ربما الحنيف.

يمكن لـ/ثم/ الثنائي المضعف أن يَسْتَبْدِلَ بأحد عنصري التشديد ألفاً أو واواً في أوله أو عينه أو لامه:

وتم → ثم ← وتم
← نوم

تتحول الشاء سيناً والألف واواً ونصير إلى: /و سم/، /سام/، /سما/، «وَالسُّمُ: الارتفاع والعلو». «والسما: السحاب» و«المطر». ويسمى العشب أيضاً سماءً لأنه يكون عن السماء» وقد يكون أخاً للثمام، وليس لَسْمُو. «والسما: ظَهْرُ الْقَرْسِ لَعْلُوهُ!! وسماء النعل: أعلاها التي تقع عليها القدم» (!) «وَالسَّمَاءُ: الصَّيَادُونَ... «جمع سام. والسامي: هو الذي يلبس جوربي شعر ويعدو خلف الصيد نصف النهار». و«سماوته شخصه». و«السماوة: ماء بالبادية» واسم الشيء وَسْمُهُ وسَمُهُ وسَمَاءُ: علامته». وقال أبو العباس: الاسم رسمٌ وسمةٌ توضع على الشيء تُعَرَّفُ به. ومن /سما/ «السومة والسبمة والسبماء والسبمياء: العَلَمَةُ». و«سَنَتِ النَّارَ: علا صَوَّءَهَا». إن لفظاً مثل Sun/ (الشمس) بالانكليزية يذكرنا به لفظ السناء بالعربية ويربط بين الشمس والنور والنار والـ صَن - م. /و سما/ و/شما/ أخوان. «التهديب: ابن الأعرابي قال: شما إذا علا أمره، قال: والشما والشمع، والله أعلم». عاد النور يرتبط بالسمو. وعاد الصنم يَرْمُزُ لعبادة نيرات السماء، وأسباب المطر والعشب. الآلهة مثل البشر تحب الأجواء الندية المشرفة المعشبة. «إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان».

وتوصلنا /ثم/ إلى /دمم/ بهذا المجرى: ث ← ت ← د؛ كما توصلنا /ثن/ إلى /دمن/ بالمجرى عينه. وفي /دمم/ نجد معنى الطلاء الأحمر على الأغلب. «دَمُ الشَّيْءِ يَدْمُهُ دَمًا طَلاَهُ. والدَّمُ والدَّمَامُ ما دَمَ بِهِ. «وَدَمُ السَّفِينَةِ يَدْمُهَا دَمًا: طَلاَهَا بِالْقَارِ». والدَّم: نبات. والدَّم: القِرابَة. «وَدَمُ رَأْسِهِ يَدْمُهُ دَمًا: ضَرَبَهُ فَشَدَخَهُ وَشَجَّهُ». و«الدِّمِّيَّة: المَفَازَةُ لا ماء بها. القِلاَة الواسعة». «وَالدَّمَامُ شَيْءٌ يَشَبُ الْقَطْرَانَ يَسِيلُ مِنَ السَّلَمِ وَالشَّمْرِ أَحْمَرُ». «وَالدِّمَّةُ لَعْبَةٌ». «وَالدِّمَّةُ خَشَبَةٌ ذَاتُ أَسْنَانٍ تَدْمُ بِهَا الْأَرْضَ بَعْدَ الْكِرَابِ، أَيْ تُسَوَّى». والميل ظاهر عند أصحاب المعجمات إلى فصل المواد عن بعضها. إنهم مبالغون لفصل /دمم/ عن /دمي/. وفي معجم /دمي/: الدَّمُ من الأخلاط: معروف. وقصده السائل الأحمر الذي يجري في عروقنا. «وفي حديث العقيقة: يُخْلَقُ من رأسه وَيَدْمَى». «وكان قتادة... قال: إذا دُبِحَتِ الْعَقِيقَةُ أُخِذَتْ مِنْهَا صَوْفَةٌ وَاسْتَقِيلَتْ بِهَا أَوْدَاجُهَا، ثُمَّ تُوَضَعُ عَلَى يَافُوخِ الصَّبِيِّ لِيَسِيلَ عَلَى رَأْسِهِ مِثْلَ الْخِيطِ، ثُمَّ يُغْسَلُ رَأْسُهُ بَعْدَ وَحْلِهِ» وقال ابن الأثير: «هو منسوخ، وكان فعل الجاهلية». و«الدَّمَى الثوب الأحمر». و«الدَّمَى من السهام الذي ترمي به عدوك ثم يرميك به... وعليه دَم». وكانوا يُقْسِمُونَ بِالدَّمِ. ففي حديث الوليد بن المغيرة: والدَّمُ ما هو بشاعر، يعني النبي (ص)، هذه يعين كانوا يحلفون بها في الجاهلية يعني دم ما يذبح على النُصْب. ومنه الحديث: لا وَا لِدَّمَاءِ أَي دَمَاءِ الذَّبَائِح، وَيُرْوَى: لا والدَّمَى، جمع دمية وهي الصورة ويريد بها الأصنام. والدِّمِّيَّة الصنم. ويقال للمرأة: الدِّمِّيَّة. و«دَمَى الرَّاعِي الماشية... أَرَعَاهَا فَسَمِنَتْ حَتَّى صَارَتْ كَالدَّمَى... «وفي صفته (ص) كَأَنَّ عُنْفَهُ عُنْفُ دُمِّيَّةٍ، الدُّمِّيَّة: الصُّورَةُ الْمَصْنُوعَةُ لِأَنَّهَا يَتَنَوَّقُ فِي صِنْعِهَا وَيُبَالِغُ فِي تَحْسِينِهَا. و«سَاتِي دَمًا: اسم جبل، يقال سُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَن لَيْسَ مِنْ يَوْمٍ إِلَّا وَيُسْفَكُ عَلَيْهِ دَم». والدَّم: الدَّم. وهو قول الكثير من الناس وقول الهذلي: «وتشرق من تَمَاهَا الْعَيْنُ بِالْذَّم». وقد كان التركيز في /دمم/ على الطلاء. بينما ركز في /دمي/ على السائل الحيواني الأحمر وعلى الدُّمِّيَّة بمعنى الصنم. فهل يكون الاسم المشتق من الدَّمِ مركزَ العلاقات الاجتماعية وعلى رأسها القرابة والدين؟ يقال: «خذ ما دَمَى لَكَ أَيِ مَا

ظهر لك. ودُمِّي له كذا وكذا إذا قُرُبَ». والاضاحي كلها تقريباً إلى الآلهة. وهنا نرجع ونذكر بأن الدَّين تعني، فيما تعني، الماء. ولا ننس جبل «سائي دَماء» الذي يذكرنا بأن مراكز أصنام كثيرة كانت في الجبال. وحول /دمي/ تستطيع أن تنظر في /دنا/ و/دام/ و/دون/. وينبغي النظر أيضاً في /دية/، و/دام/.

3 - اللات والله

ونعطف الآن انعطافاً آخر. ونحاول في هذا الانعطاف الانتقال من /وثن/ إلى /وتر/. وسبيلنا هو التحول من: ث ← ت، ومن: ن ← ر. وفق تاج العروس: «الوتر، بالكسر، لغة أهل نجد، وفتح، وهي لغة الحجاز: الفرد». و«قيل: الشُّعْ يوم النحر والوتر يوم عرفة». وقيل الأعداد كلها شُفَع ووتر». وقيل: الوتر الله الواحدُ والشفع جميع الخلق خلقوا أزواجاً و«الوترية: نُور الورد؛ والوترية ماء بأسفل مكة؛ والوترية اسم لعقد العشرة. والوترية: الطريقة. . . من التواتر أي التتابع» و«الوتر عقد العشرة». و«الوتر ما بين عرفة إلى ادم». و«الموتور من قتل له قتيل فلم يُدرِك بدمه». و«الوتر من أسماء الله تعالى وهو الفرد الفذّ جلّ جلاله». و«الوتر جبل لهذيل على طريق القادم من اليمن إلى مكة به ضيعة يقال لها المطهر لقوم من بني كنانة». هذا اللفظ مشبع بالروح الاجتماعية والدينية. الفرد والله الواحد والحساب و«يوم عرفة»، و«نور الورد»، و«ماء» و«عقد العشرة» ولا تفصل هذا اللفظ عن معنى العشرة. ونضيف إليه صفة العصبية حيث يكون الوترية «عَصْبَة تحت اللسان» و«العرق» من الذكر. فهذه مؤسسة اجتماعية واضحة الكثير من المعالم. وفيها الماء والجبل وفي الجبل ضيعة «المطهر» والاسم فيه معنى الماء والعقيدة الدينية والوطن، ثم إن /طهر/ من شقائق /طر/ و/ترور/ و/ثور/ و/أكر/ و/عقر/ وإذا شئنا أن نجتمع هذه الشقائق لنطرح منها لاحقاً ما ليس مستعملاً لجأنا إلى طريقتنا في إضافة ما تضيفه العربية وتحويل ما تحوله في مثل /طرر/، أي في الثنائي المضعف (ذي الصامتين المختلفتين):

طرر، ترر، ثرر كرو، قرر

فإنها تأتي كالتالي:

أطر، وطر، عطر، ...

أتر، وتر، عتر، هتر، حتر

أثر، وثر، عثر، ...

أكر، وكر، عكر، حكر.

أقر، وقر، عقر، حقر

ثم الأجوف بالعلّة والأحرف الجوف:

طور، طير، طار، طهر، طحر، طعر.

تور، تير، تار، تهر، تعر.

ثور... .

تليها النواقص منها. ثرى، كرو، كري، طراً، قري، قرو. ثم تتحول الرء لأمّاً ونقع على /ثلل/ و/ثال/ و/تال/ و/تال/. ونقف عند /ثرر/ فتجدها تدور على الماء. وتستنتج إذا كانت لك عشرة مع النبايع الجارية ان صوت /ثرر/ نابع مع تلك المياه. فإذا فتحت معجماً مثل Petit Robert على أسماء العلم المشتملة على ثاءٍ وراء متواليين تجد Therain وشرحه: نهر... . وعين ثرة وثرة وثرة: غزيرة الماء... . وكذلك السحابة». و«عين ثرة»: كثيرة الدموع». وجمع شعر عترة ثرة وقرارة في بيت.

«جادت عليها كل عين ثرة فتركن كل قرارة كالدرهم»

و«رجل ثر وثرة: مشدق كثير الكلام. النبي: أبغضكم إلى الثرثارون المتفهبون». و«الثرثار: نهر. و«الثرثار عين غزيرة. و«ثرثر» المكان مثل ثريته أي نديته». و«ناقة ثرة واسعة الإحليل، وهو خرج اللبن من الضرع». ومع نبع الكلام كانت أهدر الثرة.

يبدو هذا اللفظ مختصاً، في الأصل، بمعنى الماء ونبعه وجريانه. ولكن لماذا لا نفترض ان الوثن مشتق الاسم من محيط أصوات

الماء؟ وإذا افترضنا أن أصل اللفظ غير عربي - وأرجح أنه عربي - فلا يمتنعنا ذلك من افتراض نشوء ذلك الاسم الأم من أصوات ثرثرة الماء عند غيرنا كذلك. إن /لثن/ «أي حلو» ونهر الليطاني، ولا نعرف تحولات لفظ اسم، يكادان يقنعنا، إضافة إلى «الوثن»، بأن اسماء ثلاثية كثيرة يجتمع فيها الثاء والنون أو أخواتها إنما أصلها أصوات مائية. كأنما كان الوثنُ إله الماء، والأوثان آلهة الماء. ومثلما تعلق اسمهم إحدى المواد في زمن ما (البُرُّ مثلاً) تعلق اسمهم أحد الآلهة: الوثن مثلاً، الديان مثلاً. ويسبق نشاط ويغلب نشاطاً إنسانياً آخر: الحرب، السياسة، الاقتصاد، الثقافة، الفن... لكل دور أعلى.

و/ثر/ أم لأسر واسعة فيها /سرر/ و/سار/ و/سارو/ و/سري/ وقال الفراء: «السَّرْ أخصب الوادي». وأسارير الوجه: «شآبيب الوجه أيضاً ومُشَبَّحاتُ الوجه». «والسَّرَى: العَيانة من النساء»، في قولهم: «أَرَيْكَ بالله من نفس حَرَى وعَيْن سَرَى».





وإذا تركنا الأئمة للأشعة فإننا لا نعرف أين تحط بنا. لذلك سندرس عدداً محدوداً منها /ثرى/. ثَرَرَسَ ثَرَى، انتقل تركيز اللفظ عن /زَر/ إلى /رى/. «والعرب تقول: شهر ثَرَى وشهر ثَرَى وشهر ترعى... فأما قويلهم /ثرى/ فهو أول ما يكون المطر فيرسخ في الأرض وتبتل التربة». ويقال: ثريت بك أي فرحت بك وسرت: /ثر/ سر. «والثَرِيَا: من الكواكب - سُميت لغزارة نُوْثِها». يقولون مُطَرَّنَا بنوء الثَرِيَا. وإن /مطر/ ذاتها ينظر إليها من زاوية كونها تتألف من: م + طر، أو، في الأصل، من: م + ثر. نلاحظ كيف ترقى بنا مادة الماء من الأرض إلى السماء. من عالم المطر والأرض الثَرِيَّة إلى الثَرِيَا وعلم الأنواء الذي أدى إلى تمثيل أيام السنة الشمسية بثلاث مئة صنم وستين صنماً «حول الكعبة» (الواقدي، المغازي ج 2، 832) «هُبْل أعظمها، وهو وَجْه الكعبة على بابها». فلتذكر /سنن/ و/سنو/ والسنة. ولتذكر /ثني/ وأن /الاثنين/ واحدُها «الاثْن». و«الثنية» واحدة الثنانيا من الأسنان: سن/ثن. ويقال ثنيت البعير يثنيتان كان الثنيتين كالواحد وإن جاء بلفظ اثنين ولا يُفَرِّد له واحد. وكان هناك لفظاً مفرداً يدل على واحد حيناً وعلى اثنين حيناً. والاسم - فيما يبدو - اشتق من لفظ /الائن/ أو /الوثن/. وكل الألفاظ التي حاروا في تخريج معناها كـ«الثنِيا» من الجُزور: الرأس والقوائم و«ثني» من الليل أي ساعة، و«الثنون: الجمع العظيم»، و«الثنيان» من الرجال: «يَعْدُ السيد»، و«المثاني من القرآن»، هذه وغيرها لا تجد تفسيرها من دون مادة /ثن/ و/وثن/. و«الثناء»؟! ما هذا الثناء؟! وأثنى عليه؟ ما هي؟ والمثناة: «ما استُكْتُب من غير كتاب الله» ما هي يا ترى؟ إن هذه الثروة الكبيرة في /ثني/ تشير إلى وثن ما. مزدوج الصورة على الأغلب. لعل فيه الذكر والأنثى - وتضم مادة /أنث/ بالطبع إلى /ثن/ - ولعل «المثناة» كتاب ذلك الوثن. فيها - نظن - أدعية لذلك الرب وصلوات، وقراءتها تلاوة. وما هي تلك الإناث اللاتي جاءت فيهن الآية: «إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِلَّا إِنشَاءً وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَاناً مَرِيداً» (النساء، 117)؟ أهى اللات والعزى ومناة؟ أم هي سائر الأصنام، والصنم في «لسان العرب» مؤنثة؟ وهذه الثنائية في الاثنتين هل يكون وراءها الوثام (من تَام) المقبل ما بين إله الجنوب وآلهة الشمال؟ نجد إلهين أحدهما مذكر يُعْبَدُ في الجنوب من شبه جزيرة العرب وهو عشتار، والآخرى أنثى يختص بها سكان شمال الجزيرة ألا وهي اللات (رينيه ديسو، العرب في سوريا ق. س. ص 124 ط 2، 1985).



ونقف عند اللات في اللغة. ونجد في /لث/ : «لَثَ السَّوِيقُ أَي بَلَّه»؛ «وَقَدَلْتُ فَلَانَ بَلْأَنَ إِذَا لُزَّ بِهِ وَقُرْنَ مَعَهُ». و«اللات»، فيما زعم قوم من أهل اللغة: صخرة كان عندها رجل يَلْتُ السَّوِيقَ للحاج، فلما مات، عُبِدَتْ. والليث، وهي مهمة من الليث، يقول: «وفي حديث مجاهد في قوله تعالى: أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى؟ قال: كان رَجُلٌ يَلْتُ السَّوِيقَ لَهُمْ، وَقَرَأَ: أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى؟ بالتشديد». قال الفراء: «والقراءة اللات بتخفيف التاء، قال: وأصله اللات، بالتشديد، لأن الصنم إنما سُمِّيَ باسم اللات الذي كان يَلْتُ عند هذه الأصنام لها السويق أي يَحْلِبُهُ، فخفف وجعل اسماً للصنم».

وأنت تجد أن أول المعاني يشتمل على الماء وهو بَلُّ السَّوِيقِ «المتخذ من الحنطة والشعير». المعنى الثاني معنى الاقتران. المعنى الثالث هو الصخرة التي كان عندها يَلْتُ السويق ثم عُبِدَتْ، أي جُعِلَتْ ربة، إلهة، صنم. ومن قرأ بالتشديد شاء أن توافق اللات اسم الفاعل وفقاً لتصور المعنى.



وبهنا من /لث/ شيء آخر هو ما ذكره ابن الأثير: «وذكر أن التاء في الأصل مخففة للثانيتين». وبعد ذلك يقول ابن منظور: «وكان الكسائي يقف على اللاه، بالهاء. قال أبو إسحق: وهذا قياس، والأجود اتباع المصحف، والوقوف عليها بالتاء. قال أبو منصور: وقول






الكسائي يُوقِفُ عليها بالهاء يَدُلُّ على أنه لم يجعلها من اللَّتْ، وكان المشركون الذين عبدوها عارضوا باسمها اسم الله، تعالى اللَّهُ عُلُوًّا كَبِيرًا عن إفكهم ومعارضتهم والحادهم في اسمه العظيم».

أنا اعتبر أن هذا النص من أهم النصوص التي جاءت في اسم الجلالة. وبناء عليه نفهم أن /اللات/، اسم الفاعل من لَتَ، مذكر، وأن /اللات/، بدون تشديد التاء، مؤنث. وأن صيغة التأنيث تُخْرِجُ اللفظ من مادة /لتت/، وتمكّن المتكلم من تبديل التاء هاء؛ مما يجعل اللفظ: /اللاه/، كما لفظه الكسائي؛ وهذا يجعل التجانس بين اسم الصنم واسم الله (جلت عزته) تاماً: اللاه = الله. وقد كنا نريد أن نتساءل عن الفرق بين الاسمين في التضخيم. لكن استنكار أبي منصور كان حالاً دالة على المطابقة التامة. بقي أن نحاول الحصول على صورة لاسم اللات قبل التنزيل وثانية لاسم الله. ونجد اسم اللات بالخط الصفوي ضمن نقش مصور في كتاب تاريخ اللغات السامية لـ. ولفنسون، بيروت 1980، ص 186، على شكل سلسلة تمدها على الصفحة من اليمين إلى الشمال ثم تنعطف بها إلى اليمين ثم إلى الشمال هكذا: ، وذلك من أسفل إلى أعلى. وتأتي صورة اسم اللات ضمن هذه السلسلة، التي لا نجد فيها فصلاً بين كلمة وأخرى، بعد أول المنعطف من الشمال إلى اليمين. لذلك تأتي قراءتها كذلك من الشمال إلى اليمين بخلاف السطر الذي سبق سطرها والسطر الذي جاء بعده. ويتقدمها . وليها: . وهي على هذا الشكل، اقرأ من الشمال:  و ت ل ه ف

وهنا تكون اللات في: ه ل ت. ويقدر الأثريون نطقها بهاء الرجاء متصلة باللام بعد حذف همزة /آل/. ويكون المعنى: يا اللات... لكننا نجد عندنا. ولفنسون، ص 184، نصاً آخر، النص رقم (1)، كتب من أعلى إلى أسفل ومن الشمال إلى اليمين فالشمال: هكذا: ، أي بعكس الأول وفيه آخر كلمتين:  و ل ه ف. لكن ولفنسون بعد أن أثبت لكل حرف م ل س ت ل ه ف.

صورته العربية ترجم الكلمتين الأخيرتين بما يلي: «يا الله أقدم لك السلام». ولا أظن أن خطأ مطبعياً حصل له. بل ظني أنه قصد أن تقع الملابس بين «اللات» و«الله». والرغبة عند المستشرقين لتوحيد اللفظين تبدو جامحة. فبعد أن يزايد ر. ديسو على زملائه في اعتماد الموضوعية يسوق هذا الكلام:

«ومن العجيب حقاً أن نجد كلمة الله تدل على إله في مجموعة [نصوص] عربية قبل الإسلام بخمسة قرون أو ستة. غير أنه من الغريب أن هذه الكلمة قد وردت في النصوص الصفوية خمس مرات ولكننا نجعل كيف كان الصفويون يكتبونها. والواقع أن هذا الاسم المقدس كان مسبقاً دائماً بهاء [هـ] النداء. ومع ذلك، فقياساً على اسم اللات، نستطيع أن نذهب إلى أنه، في حالة الأفراد، كانت تكتب  وأن العبارات التي ترد فيها الكلمة بهذه الصورة  (فيها هاء النداء) تدل على أن هناك حذفاً للألف التي في صدر الكلمة. وهذا يدل على أن المجموعات العربية، منذ أول التاريخ الميلادي، قد فقدت تماماً الشعور بقيمة الأداة [لعله يقصد هاء ها الله] في العنصر الأول من الكلمة. وأصبح مثل هذه الكلمة مثل لفظ اللات». (ص 133 - 134).

وتعليقاً على هذا النص نقول إن اللات وجدت في أول أسماء مركبة مبتدئة بألف مثل  [ل ت ع ث ر اللات - عشر، (ص 125)، بين لفظ الله لم يوجد إلا مبتدئاً بهاء وعلى هذه الصورة  ه ل هـ]. وبناء عليه لا يعود من فائدة وثائقية للقول: «وأصبح مثل هذه الكلمة [أي الله: ] مثل لفظ اللات [أي ] ل ت]. ويكون الشكل الوحيد الذي أمكن فيه لفظ /اللات/ أن يلتبس مع لفظ /الله/ هو عندما قرأها الكسائي: /اللاه/ وعندما كان المشركون الذين كانوا يعبدونها يعارضون بلفظها لفظ /الله/. وعندها نقدر أن الآيات التي تنفي أن يكون للرب الإناث أو الأولاد،  إلا إنهم من إفكهم ليقولون وَلَدَ اللَّهُ وإنهم لكاذبون. أصطفى البنات على البنين»، إنما تؤكد تحرده وتعالیه فوق مادة الأوثان.

إذن يكون الفرق الذي لا سبيل إلى محوه حتى الآن - رغم قراءة الكسائي واعتراف أبي منصور وابن الأثير - هو أن /الله/ مذكر، و/اللات/ حتى بلفظها الآخر أي /اللاه/ مؤنثة عدا ما يداخل هذا اللفظ من تذكير لاتصاله باسم الفاعل من /لت/.

ويظهر أثر رسوخ اللات في اللسان العربي ليس فقط من خلال ما أورثته المعجمات العربية من /لتت/، بل هناك /آلت/ و/ليت/ و/لوت/. تطالعك مادة /آلت/ في «لسان العرب» بـ: «الآلَتُ الحَلْفُ». و«آلت عليه: طلب منه حَلْفًا أو شهادة، يقوم له بها». يروى أن

رجلاً سمع آخر يقول لعمر: «أتى الله يا أمير المؤمنين» فقال له السامع مستكراً: «أتأتيت على أمير المؤمنين؟» و«روي عن الأصمعي أنه قال: أتت يميناً يألته التاء إذا أخلفه». وهذا من /اللات/، فلا أجد فيه شكوكاً. كان اللغويين الأوائل قالوا لنا: هذا من هذا.

ونلاحظ أن /ألت/ تعود فتلتبس بـ/ليت/ حيث نقرأ في شرح /ألت/: «وألته أيضاً: حسبه عن وجهه وصرفه مثل لآته يألته، وهما لغتان، حكاهما اليزيدي عن أبي عمرو بن العلاء». وفي التنزيل: «وما أنزلناهم من عملهم من شيء». قال الفراء: الألت: النقص، وفيه لغة أخرى: وما أنزلناهم». أما /لات/ و/ليت/ فاصلهما استغاثة باللات: (فها اللات) أو فيا ليت. وقد ينظر في أمر /التى/ و/اللاتي/ و/تلا/. وقد يحلوا لك أن تنظر في /عنت/.

ورسوخ لفظ /الله/ ظاهر في /آلة/ و/وله/ و/هل/، مع أن الأخيرة تجعل الباحث يفكر في أمر الهلال والعبادة القمرية. وقد يكون لله في مواد /الو/ و/علو/ و/عله/ شيء من التناسل اللغوي لفظاً ودلالات. ومدى اتساع المشتقات المتفرعة من أحد الجذور يدل على أهمية خاصة لأحد مراكز ذلك الجذر. يمكن أن تنشأ حول المؤسسة المركزية مؤسسات فرعية، ويمكن أن تشعب من اسمها أسماء وأفعال أو يمكن لذلك الاسم أن يدخل في تركيبات تظل تتجاوز الحصر. فمن الأسماء الكبيرة التي تشعبت لأهمية وظيفتها كلمة /أم/ وهي لم ندرس بعد دراسة وافية. ومن أهم الألفاظ الدائرة في فلك الديانة الوثنية لفظا /عتر/ و/عقر/. فـ/عقر/ يتسع بطرق عدة أهمها: أن يدل المشتق منه بوزن معين على أكثر من شيء، وأن تتكاثر مشتقاته وتنظم في أكبر عدد من مقاييس الكلام، وأن يدخل اللفظ المشتق مع غيره ليدل على معان لم تكن من ضمن المادة. وهذا الشعب والتوسع والتكاثر يشبه في هيئته هيئة المؤسسة التي يعبر عن ترامي وظائفها وعلاقاتها وإنتاجها. والطريقة الرابعة التي يتم بها التوسع هي تحوُّل بعض أو كل أصوات اللفظ لتنشأ ألفاظ لم تكن، أو لتحتاج مدلولات اللفظ المتحوِّل إلى غيره مساحة من مشتقات ذلك الغير. وقد تكون المؤسسة دينية سياسية أو عسكرية أو ثقافية. وقد تكون شخصاً أو مادة لها من الأهمية ما يملأ الشواغر ويحرك السواكن ويطيح المهلَّهَل.

ويمكن أن يحدث عكس هذا، فتكون إحدى المؤسسات أو أحد الأشخاص قد احتلَّ قطاعاً واسعاً من الأوزان التي تنوف الألف والمئة، ويتصدع وينهار. وبانهياره قد ينهار البنيان اللغوي الذي قام بقيامه. كما ترى في انهيار معسكر اللات. فلا /ليت/ ولا /لوت/ ولا /ألت/ إلا ما احتل مكانة لم يزاحمه عليها لفظ من المؤسسة الطالعة. فهذه /آيت/ في عز صباها، إذ لا مثل لها يضاهيها.

وخلاصة هذا المقال على الصعيد الديني تشبه الخاطرة التي ما تزال تنتظر من يجلو غوامضها؛ ومؤداها أن الآلهة في جنوب الجزيرة وفي شمالها ووسطها كانت عشية نهوض الاسلام على وئام فيما بينها. ولم توح المادة اللغوية الواسعة المتعلقة بأسماء أولئك الآلهة بأي تناحر يذكر فيما بين أفرادها ومجموعاتها. وبتعبير مختلف: إذا كانت القبائل تقتتل وتتعدى فإن كل إله من الآلهة المتعادية أتباعها لا يدعى إلا إلى مثل ما يدعى إليه الإله الآخر. بل يبدو أن المغازي ما بين القبائل كانت ماضية نحو إسقاط اضطراب القيم. وإن بعض القبائل أو الأقوام عرفوا آلهة غير محلية ولم يعارضوها كثيراً ولم يبالغوا في التعصب لها. ولعل الإسلام قد حمل هذا الطابع فلم يعاد القيم الكبرى في الجاهلية ولم يعتبر وجوده مرهوناً بإلغاء ما عداه. وإن الله العلي العظيم قد لاقى من الآلهة الوثنية إذعائاً وتسليماً أعجل من ذاك الذي لاقاه البدر الطالع من ثنيات الوداع في صفوف الأحلاف وفلول الأحزاب؛ وأسلمت له العربية الوثنية وجهها ومضت في التطهر، قدر المستطاع، من مدلولات الآلهة المهزومة التي قد تُغضبُ جلاله وعزته.

الهوامش

(*) إذا كان المقصود لفظ الله فيجب أن يكون الحرف الأخير هـ / ٦٦ / وليس تاء كما هو مرسوم. والأغلاط كثيرة في النصوص المكتوبة بالحرف العبري أو الحرف اليوناني. فلا يميزون السين من الميم ولا التاء من الهاء ولا العين من الجيم. . . عدا ما جاء رأسه في موضع رجليه في ترجمة ر. ديسو الراحة.